

ترتيب الولادة.. كيف يؤثّر في شخصية أبنائنا؟



بين الناجح وـ"لـل المشاكل والمحبوب..."

لابدّ أنكم سمعتم يوماً عن "متلازمة الطفل الأوسط". لكن الواقع هو أنّ كلّ طفل سواء أكان الأكبر، الأصغر أم الوحيد، يتأثّر بالترتيب الذي ولد فيه بين إخوته وأخواته، وذلك وفق دراسات علمية عديدة، منها ما يعود إلى القرن التاسع عشر.

إنّه السؤال المشروع، الذي لابدّ وأن يطرأ في بال كلّ واحد منّا في مرحلة ما من حياته، وهو ينظر إلى الاختلاف الكبير بينه وبين أشقائه: إذا كنا قد حظينا بنفس الوالدين، والكثير من الجينات المشتركة، فكيف أصبحنا على هذه الدرجة من الاختلاف؟

الترتيب يتحكم في خياراتكم:

في الواقع، يعتقد العديد من العلماء أنّ السبب يعود جزئياً إلى الترتيب الذي ولدتم فيه. هذا الترتيب، في رأيهم، لا يشكل شخصياتكم وحسب، بل يؤثّر أيضاً في القرارات التي تتخذونها، و اختياركم لشريك الحياة، والصداقات، والحياة المهنية.

هذا الموضوع ليس جديداً، بل أجريت العديد من الدراسات حوله سابقاً، وذلك منذ العام 1874 على يد أحد أقرباء تشارلز داروين، وهو السير فرانسيس غالتون. وفي عشرينيات القرن الماضي، قام د. الفرد آدلر، زميل سigmوند فرويد، بباحث معمقة، ووجد أنّ الترتيب الذي نولد فيه يؤثّر علينا بشكل كبير. ومنذ ذلك الحين، تخطى عدد المقالات العلمية المكتوبة حول الموضوع عتبة 65000 مقالة، بحسب د. طوني كاسيدي، عالم النفس في جامعة أستر في بريطانيا.

كاثرين شومان، مؤلفة كتاب Children Middle Of Power Secret (أي القوة السرية للأطفال الأوسط) تكشف أنّ هناك "الكثير من الأدلة التي تشير إلى أنّ ترتيب الولادة مهم حقاً، وفي إمكانه التأثير في شخصية الإنسان".

بالفعل، هذا ما أكدته دراسة حديثة، قامت بها جامعة إسيكس في بريطانيا، والتي وجدت أن الأطفال الأباء هم أصحاب الإنجازات، ومن المرجح أن يكونوا أكثر طموحاً ونجاحاً من الأشقاء الأصغر سنًا. بل حتى يعتقد بعض الباحثين أن ترتيب ولادة الطفل مهم بقدر جنسه، وهو تقريباً بأهمية جيناته نفسها، وذلك اعتماداً على نظرية تأثير النشأة في الشخصية، لهذا السبب لا يوجد طفلان متشاركان، على الرغم من عيشهما في العائلة نفسها. لماذا؟ لأن الآباء يتفاعلون بشكل مختلف مع كل طفل من أطفالهم، ولأن كل طفل يتذبذب لنفسه دوراً مختلفاً في الأسرة. على سبيل المثال، إذا كان الطفل يميل إلى رعاية من حوله والاهتمام بهم، فسوف يختار أشقاءه دوراً آخر، شأن صاحب الإنجازات أو المهرّج المفعم بالحياة... إلخ.

تصرف الأهل ليس نفسه:

كل والد ووالدة يتذكران طفلهما الأول جيداً: إنّه الطفل الذي كان يراقبانه خلال نومه للتأكد من أنّه ما زال يتنفس، والطفل الذي حرصت والدته على إرضاعه طبيعياً، أو تعقيم زجاجات الحليب أكثر من مرة قبل استخدامها، والذي كان والداه يحملنه بين أذرعهما في أغلب الأوقات. هذا الطفل هو الطفل الوحيد الذي سوف يحظى بوالديه كلياً لنفسه. أمّا الأبناء الآخرون فتحتتم عليهم المشاركة في ما بينهم.

بعبرة أخرى، يأتي الأطفال الأباء إلى عائلة من البالغين، الذين يفتخرن بكلٍّ تقدُّم يحرزه فلذات أكبادهم، ويختفون عليهم من كلٍّ المخاطر المحتملة. غالباً ما يُهيمن هؤلاء على الأطفال الأوّل، باعتبارهم أكبر سنًا وأكثر حكمة وكفاءة. وبحلول الوقت الذي يأتي فيه الطفل الأصغر، يكون الأهل عادة قد أصبحوا متعبيين وأقل حماسة، ما يعني أقل مَيْلًا للتدخل الدقيق في تفاصيل حياته كافية. فهم باتوا يعرفون أنّ الطفل لن ينكسر، وبالتالي، يتعاملون معه بمرونة أكبر من ناحية الاهتمام الذي يمنحونه له، والانضباط الذي يفرضونه عليه. ونتيجة لذلك، يتعلّم هذا الطفل في وقت مبكر طُرُق الإغراء والتلاعب وأساليب الترفيه.

من أنتم بحسب ترتيب ولادكم؟

في حين تتم برمجة الطفل البكر للسعي خلف التميز وتحقيق الإنجازات، يُربى الطفل الأوسط ليكون متفهماً وبمثابة صانع السلام في الأسرة، أما الطفل الأصغر فيميل إلى البحث عن الاهتمام. ونتيجة لذلك، يصبح ترتيب الولادة عاملاً مؤثّراً جدًا في شخصية الإنسان. في ما يلي تصنيف مفصل لشخصيات الأطفال، بحسب ترتيب ولادتهم وفقاً لأحدث دراسة بريطانية.

الأباء أذكياء:

بما أنّهم ظهروا على الساحة أوّلاً، فهم يميلون ليكونوا قياديين بالفطرة. لقد أمضوا سنواتهم الأولى مع البالغين، الذين أغدقوا عليهم فائضاً من الاهتمام والإشارة. وعند ولادة الأطفال الأصغر سنًا، يصبح الأباء بمثابة بالغين على مُصْغَر، فيكلاًـفون بالعناية بأشقاءهم، ما يجعلهم واثقين بأنفسهم، ويكتبون لاحقاً ليصبحوا أشخاصاً ناجحين، يتمتعون بحس المسؤولية. يفسر د. طوني كاسيدي ذلك بقوله "المواليد الأوائل يملكون مندفعين ويتمتعون غالباً بالوعي ويتصارّفون بما تملّيه عليهم ضمماً ترهم، ولكن بسبب ثقل هذه التوقعات والأعمال التي توضع عليهم، يصرون غالباً بالخوف من الفشل وبالتوتر". في بالنسبة إليه، يضع الأهل الأكثرين من الآمال على ولدهم البكر، الأمر الذي يؤدي إلى أن يتحول شيئاً فشيئاً إلى بالغ يخاف من تخبيب طن الآخرين فيه. في العلاقات، يميل الأباء إلى التصرف بحسب القيم التي زرعها فيهم والداهم. غالباً ما يرتبط البكر بشخص يكون أيضاً بكرًا في عائلته، ذلك أنّه يتشارك معه القيم والمبادئ الجوهرية نفسها. فهوّلاء قد حظوا بالاهتمام والتوجيه المبالغ فيهما من قبل آباءائهم وأمهاتهم، فأصبحوا مسؤولين وجديرين بالثقة وحدّرّين، يتسمون بحسن التصرف، وهم نسخة مصغّرة عن أهلهم. يقول الدكتور كاسيدي: إنّ البكر يميل دائمًا إلى بسط سيطرته على نصفه الآخر، والتعامل معه وكأنّه طفل، ذلك أنّه اعتاد القيام بهذا الدور مع أشقاءه، ومن المرجح أن يستمر في

القيام به كبالغ، وهذا يمكن أن يزعج الطرف الآخر، بدل اعتباره شكلاً من أشكال الحب.

المواليد الأوائل غالباً ما يفضّلون اختبار مسارات آمنة في المجال المهني، أي المهن التي تتسم بهيكليمة صارمة وتحتطلب حساً عالياً من المسؤولية والانضباط، مثل الطب أو السياسة. هناك دراسة، قامت بها جامعة أوسلو، وجدت أنَّ الأباء يسجّلون معدلات أعلى في اختبار الذكاء؛ فعبر استعانتهم بسجلات الجيش، خلصوا إلى أنَّه في المتوسط، يكون الأبناء الأباء أكثر ذكاءً. يفسر د. كاسيدي ذلك: "أنَّ الوالدين يستثمران كثيراً في طفلهما البكر، إذ يكرسان له كلَّ ما لديهما من وقت وطاقة".

الأوسط ليسوا صعبين:

حان الوقت للتخليم من تلك الأفكار التي عفا عليها الزمن عن كون الأطفال الأوسط صعبين، ويحتاجون إلى مجهود مضاعف للتتعامل معهم وفهمهم. ففي حين يتتفق الباحثون على أنَّ الاهتمام الذي يمنحه الأهل للأباء وصغار الأسرة يفوّت الأوسط أحياناً، إلا أنَّ هذا "الإهمال الحميد" يمكن أن يكون في الواقع إيجابياً بالنسبة إليهم، ذلك أنَّه يدفعهم ليكونوا مستقلين مبكراً في حيّاتهم. فال الأوسط يتعتم عليهم الاهتمام بأمورهم بأنفسهم، مما يجعلهم يتحوّلون إلى متخصصين في إيجاد حلول لإبداعية للمشاكل التي تواجههم، ومع ذلك، لا مفر من أن يشعروا أحياناً بالضياع داخل الأسرة، وسط كلَّ هذا الاهتمام الذي يخطى به أشواقهم، ما يمكن أن يؤدي إلى شعورهم بانعدام الأمان.

في ما يخص العلاقات، غالباً ما يتتفق الأولاد الأوسط مع أشخاص من أي ترتيب كانوا، لأنَّهم معتادون على التعامل مع الأكبر منهم والأصغر منهم سناً. ويلاحظ الباحثون كذلك أنَّ الأوسط يميلون ليكونوا أكثر إخلاصاً في العلاقات، وأنَّهم، بحسب كاثرين شومان "غالباً ما يكونون ما هربن في التفاوض، لكثره ما اضطروا خلال نشاطهم إلى حل المشاكل التي تقع بين أشقاءهم. وهذا يجعلهم شركاء أو فياء يحاولون، ويعزفون كيفية تجنب المشاكل. ومع ذلك، فهم عرضة للاستغلال من قبل الآخرين، كما أنهم يميلون إلى سحق احتياجاتهم الخاصة لإرضاء الآخرين". من حيث الحياة المهنية، "لا يهتم الأوسط كثيراً بالوظائف المرموقة" على حد قول شومان، فهم أكثر ميلاً إلى الفن والمغامرة، وليس لديهم مشكلة في اختيار مهن تعتبر أقل ضمانة وأماناً. غالباً ما يتلقّبون أقل من أشقاءهم الأباء والصغار. لكنَّ هذا لا يعني أنَّهم أقل نجاحاً ولا يحبون تحقيق الإنجازات، سيّما وأنهم قصوا طفولتهم وهو يتعلّم ملاحظتهم من قبل أفراد العائلة. في الواقع 52% من رؤساء الولايات المتحدة هم من الأطفال الأوسط، ناهيك عن أمثال بيل غيتس ونيلسون ما نديلاً.

الصفار.. أصحاب الروح الحرة:

يميل الأهل لأن يكونوا أكثر استرخاء مع طفلهم الأخير، ما يجعل منه بالغاً منطلاقاً ومحباً للحرية. يقول الدكتور كاسيدي: "صغار العائلة عادة ما يكونون أكثر انفتاحاً ويتعلّمون التعامل مع الآخرين، والتلاعب بهم للحصول على مبتغاهم، إنما بطريقة إيجابية". هذا يعني أنهم يعرفون كيف يجعلون الناس سعداء من دون بذل أي مجهود، ويمكنهم تحقيق كلَّ ما يضعونه نصب أعينهم. لكنَّ الباحث، الدكتور الفريد أدلر، يفهم صغار الأسرة بكونهم مدللين وزرويين. وربما يعود ذلك إلى أنَّ توقعات الأهل من صغير العائلة تكون أقل، كما أنهم يميلون إلى إغراق حبهم عليه والإفراط في تدليله، معتبرين أنَّه لا يمكن أن يخطئ. الثقة بالنفس، التي يكتسبها صغار الأسرة من كونهم محط اهتمام أهاليهم، يجعلهم محبوبيين عموماً، ولكن غالباً ما يشعرون أحياناً عن مشاعر الآخرين.

الأصدقاء والشركاء يتّهون على صغار الأسرة، فثقتهم بأنفسهم جدّاً. وبما أنهم المتّمردون في الأسرة، فمن المرجح أن يختاروا شركاء غير مناسبين. لأنَّهم معتادون على كونهم محظوظين، ويتوّقّعون من الناس أن يعجبوا بهم مهما فعلوا، الأمر الذي يعميهم عن أخطائهم في العلاقات. ومن المحتمل كذلك أن يتّسم هؤلاء الأشخاص بالعناد، متوقعين أن يتحرّك الجميع لارضاً لهم بدلاً من قيامهم بمجهود، ولو بسيط لتلبية رغبات الآخرين.

غالباً ما يتّشيد الأهل، لا شعورياً، بصغار الأسرة، بحيث يستغرق هؤلاء وقتاً أطول، في العادة، للانطلاق في حيّاتهم المهنية. إلا أنَّ الصغار يهونون غالباً المخاطرة، ولذلك كثيراً ما ينتهي بهم

الأمر في وظائف إبداعية أو في عالم الترفيه.

الأطفال الوحيدون:

يواجهون ضغوطاً، ويحصدون اهتماماً مما ثلاً لـالمواليد الأبكار. وتشير الأبحاث إلى أنّهم يطويّرون الخوف من الفشل نفسه والمهارات القيادية نفسها، لكن بأشكال أكثر تطرفاً. لكن في المقابل، يمكنون أقل ميلاً إلى المنسنة وأقل حذراً، لأنّهم لم يُؤْمِنُوا في مواقف تحمّل المسؤولية أو المشاجرة مع إخوتهم. يقول الباحثون: إنَّ الأطفال الوحيدين يمكن أن يكونوا أكثر عرضة للتأثر بالأحداث، لأنَّ الأشقاء عادة ما يوافِرون منظوراً مختلفاً عن الأوضاع التي يختبرها الإنسان. كذلك لا يتمنى للوحيدين رؤية المشكلات التي يمرُّ بها غيرهم من الأطفال، ورؤيه كيف تم حلَّ تلك الحالات، لذلك يمكن أن يواجهوا صعوبة في حل المشكلات عندما يكبرون. إنَّما بعيداً عن الصورة النمطية التي ترسم عن الأطفال الوحيدين، على أنّهم يعانون من الانعزال والوحدة، غالباً ما يكون هؤلاء اجتماعيين، يتواصلون بسهولة مع الآخرين، ويكونون من السهل معاشرتهم، كما أنّهم يكونون مخلصين جدًا للأصدقاء، الذين يعتبرونهم امتداداً لأسرهم.

كبالغ يصبح الطفل الوحيد شريكاً حساساً يتمتع بالتنبؤ، وفقاً لبحث أجراه موقع birthorderpersonality.com، أن يمكن المقابل في ولكنه، بهم يرويتأثر الكبار جو في ينشأه لأنَّه يمرُّ بالتجارب نفسها التي يمرُّ بها الأشقاء، من مشاحنات يكافح للتغلب على العقبات، ذلك أنَّه لا يمرُّ بخناقات ومصالحات. فنشوب أي خلاف مع الأشقاء لا يعني نهاية العالم، بل لابد أن تحلَّ المشكلة في ما بينهم، وتبقى الأمور على ما يرام بالرغم من اختلافات الرأي. أمّا الطفل الوحيد، فيشعر أنَّ المشكلات هي أمر مهم جدًا، ومن الصعب تخطيها بسهولة.

نظراً لكلِّ هذا الاهتمام الذي يلقونه من الكبار، يصبح الأطفال الوحيدون ميداليين للقيادة مثل المواليد الأوائل، وهذا يعني أنَّهم في نهاية المطاف سيختارون وظائف تمنحهم السلطة، إلا أنَّهم على عكس الأبكار، لم يحظوا بفرصة تعليم وإرشاد أشقاء أصغر سناً، لذلك فهم قد يصبحون متسلطين ومهووسين بالسيطرة.